جهود النحاة و البلاغيين في نشأة الجملة العربية و تطورها

أ/ حركاتي ميلود

جامعة خنشلة

ملخص:

يعالج هذا المقال موضوع الجملة العربية بين النحاة و البلاغيين و محاولة إظهار جهود و مساهمة كل طرف في النهوض بها و تطويرها عبر العصور.

كما تهدف هذه الدراسة – أيضا – إلى تبيان علاقة النحو بالبلاغة و إبراز المجال الذي تناوله البلاغيون في دراستهم للجملة ، و كذلك فضل النحاة في مجال البلاغة.

و النتيجة المستخلصة من هذه الدراسة بصفة عامة تبيّن أن جهود البلاغيين في دراسة الجملة العربية كانت مكملا طبيعيا لجهود النحاة في ميدان النحو.

RESUME :

Cet article a pour but de montrer la place de la phrase arabe entre grammairiens et rhétoriciens et leurs différents essais à mettre en valeur les efforts de chaque partie pour son amélioration et son développement à travers les siècles.

Il a également pour but d'essayer de montrer la relation entre grammaire et rhétorique et le rôle joué par cette dernière dans l'étude de la phrase arabe ainsi que l'apport de la grammaire dans le domaine de la rhétorique.

D'une manière générale, le résultat auquel est parvenue cette étude montre que les efforts des rhétoriciens dans le domaine de l'étude de la phrase arabe étaient complémentaires à ceux des grammairiens dans le domaine de la grammaire.

تقديم:

قد يعتقد البعض أن دراسة الجملة [1] من اختصاص النحاة وحدهم دون سواهم ، ولكن في الواقع هناك من شاركهم في هذا المجال وأعني بهم علماء البلاغة الذين ساهموا في النهوض بالجملة وتطويرها و على رأسهم العلامة عبد القاهر الجرجاني الذي ألف كتابا أسماه " الجمل".

وقد اهتم البلاغيون بدراسة نظام الجملة[2] حين تحدثوا عن الفصاحة في الكلام والخبر و الإنشاء وأحوال المسند والمسند إليه ، من حذف و ذِكر، وتقديم وتأخير... وكان تركيز البلاغيين في دراسة الجملة على المعنى بصفة خاصة ، مع المحافظة على التنظيم النحوي لها، وجعله مهما في تركيبها.

ومهما يكن من أمر فإن النحاة والبلاغيين يبحثان في الجملة و التركيب، ولكل منهما وجهته وأسلوبه.

و هذا المقال محاولة لتسليط الضوء على جهود كلا الطرفين.

1- علاقة النحو بالبلاغة:

بين النحو و البلاغة علاقة حتمية لا يمكن بأية حال الاستغناء عنها ؛ ذلك أن النحو هو الذي يقوم بوظيفة تصحيح التراكيب و العبارات ليضمن لها حسن التأليف وسلاسة العبارة و دقة المعنى.

كما أن الصرف " يفيد في التصرف " في الكلمات تبعا للمعاني و إلى هذا أشار الأستاذ أحمد الشايب عند حديثه عن "

البلاغة بين العلوم الأدبية " بقوله " و أما النحو فمهمته تصحيح التراكيب و العبارات متخذا المعاني الجزئية مقياسه لذلك يظهر أثره الواضح في حسن التأليف و سلاسة العبارة و الحرص على دقة المعنى و وضوحه ....

فالنحو لا يقف عند حركات الإعراب بل يشمل موسيقى العبارات و منطق المعاني والأذن تتأذى من الأخطاء النحوية كما يتأذى العقل من التعقيد اللفظي والمعنوي جميعا..." . (3)

و النحو مع الصرف " يرشدنا إلى بناء الكلمات اللغوية و تصريفها و بيان علاقاتها معا في الجمل و العبارات، ثم يعيننا كذلك في تكوين التراكيب الصحيحة ، و الفقر المترابطة الأجزاء، و بذلك تنتهي مهمته (النحو) ما دام قد تحقق لنا صحة العبارة في ذاتها بصرف النظر عن صلتها بالقراء أو السامعين. و على الفن البلاغي بعد ذلك أن يتصرف في العبارة —— مع بقاء صحتها – تصرفا يجعلها سلسة قوية التأثير، بعيدة عن التنافر سهلة قريبة الفهم، فقد تكون العبارة صحيحة التكوين النحوي و لكنها مع ذلك سقيمة التراكيب صعبة الفهم لا ترضي الذوق، و إذاً فلا يمكن أن تسمى بليغة ؛ لأن البلاغة تستلزم أمرين هذا الصواب النحوي الذي أشرنا إليه ، ثم الجمال و الملاءمة لأذواق المخاطبين وعقولهم.

من أمثلة ذلك قول المتنبى :

و شيخٌ في الشبابِ و ليسَ شيخًا * * * يُسمّى كلُّ من بلغَ المشيبَا

لكثرة الاضطراب في تكوين العبارة حتى صارت بطيئة الفهم، و ترتيبها الطبيعي هكذا: " هو شيخ في الشباب، و ليس كل من بلغ المشيب يسمى شيخا".

فهذه الصحة النحوية و المطابقة لقواعد الإعراب لا تكفي لتحقيق البلاغة ما دام التقديم و التأخير قد مزق أوصال العبارة كما رأيت. (4)

انطلاقا من هذه العلاقة المتينة بين البلاغة والنحو أو النحو و البلاغة ندرك مدى مساهمة النحاة في تأسيس البلاغة و كذلك مساهمة البلاغيين في بناء أسس و أركان النحو و لا سيما الجملة.

2- مساهمة النحاة في تأسيس البلاغة:

و قبل التطرق إلى مفهوم الجملة عند البلاغيين العرب ، أود أن أشير أولا إلى دور النحاة في البلاغة " إنهم هم أصحاب الفضل الأول فى نشأة البلاغة على الرغم من أنها كانت في البداية نظرات متناثرة هنا و هناك ضمن مباحثهم النحوية ، ثم أتيح لمن أعقبهم أن يصوغ هذه النظرات العابرة قواعد بلاغية ذات صبغة علمية ". (5)

و يرى بعض الباحثين أن النحاة ساهموا في تأسيس البلاغة بداية من الخليل بن أحمد الفراهيدي و تلميذه " سيبويه " إلى أعظم أعلامها على الإطلاق " عبد القاهر الجرجاني يقول : "... و الخليل لم يغفل ذكر بعض الألوان البلاغية التي أدخلها المتأخرون فيما يسمى بخروج الكلام على غير مقتضى الظاهر كوضع غير العاقل في موضع العاقل ووضع المثنى موضع الجمع : فالأول يجري بإفاضة في آيات القرآن حيث يصف القرآن الأشياء التي لا تعقل بصفات العقلاء فتستحق معاملتهم ، و تأخذ حكمهم يذكر ذلك سيبويه و ينقله عن الخليل فيقول : " وأما (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) * ، و (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) ** و(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ)*** " فزعم –أي الخليل– أنه بمنزلة ما يعقل ويسمع لما ذكرهم بالسجود ، و صار النمل بتلك المنزلة حين حدثت عنه كما تحدث عن الأناسي و كذلك في فلك يسبحون ؛لأنها جعلت في طاعتها ... بمنزلة من يعقل من المخلوقين و يبصر الأمور، و من الممكن أن ندخل هذا النوع من الاستعارة بالكناية، أو ما يحلو للبعض أن يسميه بالتشخيص نقلا عن الآداب الغربية ...

و الخليل لم يقتصر في ملاحظاته على بعض أوجه علم المعاني، بل أيضا تحدث عن بعض صور علم البيان، فقد تحدث عن التشبيه و إن كان قد رمى فيه بسهم طائش، فلم يصب الغرض....

فالخليل إذن قد تناول العديد من فنون البلاغة فعرفها ،و تحدث عن خفة الألفاظ وسهولتها، و عن ثقلها و شناعتها ، و ما يطرأ على حروف الكلمة من التنافر بسبب القرب أو البعد. و بذلك يمكن القول إن الخليل قد أدلى بدلوه في البلاغة و أسهم فيها

بنصيب وافر". [6]

أما عن سيبويه — تلميذ الخليل- فقد كان من مؤسسي البلاغة من خلال كتابه الذي سماه (قرآن النحو) كما يروي صاحب " المزهر بقوله:" و أخذ النحو عن الخليل جماعة لم يكن فيهم ولا في غيرهم من الناس مثل سيبويه، و هو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل وألف كتابه الذي سماه " قرآن النحو" و عقد أبوابه بلفظه و لفظ الخليل". [7]

هذا عن تسمية الكتاب. أما محتواه البلاغي فيقول عنه الدكتور: عبد القادر حسين " يحق لنا أن نقول دون ادعاء أو مبالغة إن سيبويه كان حجر الأساس في بناء البلاغة العربية بما ذكره من موضوعات تدخل في علم المعاني كالحذف و الزيادة ، و الذكر و الإضمار و التقديم و التأخير و الاستفهام و القصر، و الفصل و الوصل و المجاز العقلي و التعريف و التنكير و مقتضى الحال و القلب.... و لم يفته أن يتناول أسرار التراكيب و تأليف الكلمات، وصوغ العبارات، وإبراز الفرق بين تعبير و آخر ... و إن اهتمامه لم يكن قاصرا على أواخر الكلمات و بيان إعرابها و بنائها، و إنما تجاوز ذلك إلى نظم الجملة و الجمل...

" ولاشك أن هذه المسائل البلاغية التي طرقها سيبويه في كتابه تشكل كثيرا من أبواب البلاغة و لذلك فإن كثيرا من العلماء الذي يعتد بهم في تاريخ البلاغة قد اغترف من هذا البحر الزاخر دون أن ينضب له معين ومنهم من يعترف بأنه استقى من كتاب سيبويه بعض مسائله البلاغية كعبد القاهر". [8]

من خلال هذا، نلاحظ أن للنحاة دورا في تأسيس البلاغة ، و لكن هناك من النحاة من كان بلاغيا و نحويا ، له مؤلفات في النحو و البلاغة ، إنه العلامة " عبد القاهر الجرجاني " الذي درس النحو على أبي الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي ابن أخت أبي على الفارسي و من مؤلفاته في النحو كتاب " المقتصد في شرح الإيضاح لأبي على الفارسي " وكتاب " العوامل المائة " و من مؤلفاته في البلاغة " دلائل الإعجاز" و " أسرار البلاغة ".[9]

و عن هذين الكتابين العظيمين يقول السيد محمد رشيد رضا :" رحمه الله" في مقدمة (دلائل الإعجاز)،إن كتاب دلائل الإعجاز الذي ننشره اليوم هو صن وكتاب أسرار البلاغة الذي نشرناه في أول العام الماضي (1320 هـ) و قد صدرت ذلك الكتاب بمقدمة بينت فيها حقيقة معنى اللغة ومعنى" البيان" فيها، ومكانة ذلك الكتاب من البيان وعلمه ومن سائر كتبه، مع الإلمام بشيء من تاريخ البلاغة أثبت فيه أن الإمام الشيخ عبد القاهر الجرجاني هو مؤسس علمي البلاغة ومقيم ركنيها "المعاني و البيان" بكتابيه" أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز،" وأن السكاكي و من دونه من علماء هذا الشأن عيال عليه".[10]

و عن ترجمة المصنف " عبد القاهر الجرجاني " يقول السيد " رشيد رضا " في مقدمة أسرار البلاغة " اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم و الدين و لقبوه بالإمام واشتهر بالنحوي من قبل أن يضع علم البلاغة ".[11]

بناء على ما تقدم ، يمكن القول إن الإمام عبد القاهر الجرجاني جاء لإحياء النحو و تأسيس البلاغة.

إن النحو كان مزدهرا في عصر الخليل و سيبويه ، ولكن النحاة الذين جاؤوا من بعدهما "تأثروا بالفلسفة الكلامية ،والمنطق اليوناني، وما لهما من أقيسه و مصطلحات و توجهات كثرت في الدرس النحوي وتم لهما السيطرة عليه وكان لهما الغلبة.

و من هنا أخذ ألنحو ينحرف عن طريقه ، وبدأ يتحول شيئا فشيئا إلى درس ليس فيه من سمات النحو و اللغة إلا مظهرا شكليا ، مما أودى بحيويته ، وقدرته على تأدية وظيفته وصار درسا في الجدل، يعرض فيه النحاة قدرتهم على التحليل العقلي بما كانوا يعرضون من مشكلات و ما يقترحون لها من حلول ، أما وظيفة النحو في الكلام فله المترلة الثانية من اهتمامهم و جهدهم .

و أتى عبد القاهر فوجد عامة المحدثين و الفقهاء : قد زهدوا في النحو لما وجدوه ممزوجا بالمنطق وهجروه لما عز عليهم الاستفادة منه ، فوجه إليهم اللوم و العتاب، وذهب إلى أن من يصد عن تعليم النحو فهو صادّ عن سبيل الله ، إذ أن إعجاز القرآن الكريم بالنظم و ما النظم إلا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، و تعمل على قوانينه وأصوله.

و التركيب النحوي له معنى أول يدل على ظاهر الوضع اللغوي ، وله معنى ثان و دلالة إضافية تتبع المعنى الأول ، وهذا المعنى

الثاني ، و تلك الدلالة الإضافية هي المقصد و الهدف في البلاغة ، وقد جهد عبد القاهر في سبيل هذا الهدف ، وشقى في الوصول إلى ذلك الغرض حتى خرج بقاعدة لا تتخلف ، وقانون لا يقبل النقض ، وهو أن دقة النظم و البلاغة و البراعة والبيان ، كامنة في معاني النحو ومطوية في التركيب اللغوي ".[12]

3- الجملة عند البلاغيين:

كان مصطلح " علم المعاني"عند البلاغيين قبل عبد القاهر هو موضوع دراسة الجملة من جميع نواحيها وقد أشار الدكتور عبد الفتاح لاشين إلى تطور مصطلح علم المعاني حتى مجيء عبد القاهر بقوله "علم المعاني من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتعلق بالجملة ، و ما يكون فيها من حذف أو ذكر أو تعريف أو تنكير أو تقديم أو تأخير أو قصر أو فصل أو وصل أو إيجاز أو إطناب ولا نعرف أحدا استعمله و سمى به قسما من موضوعات البلاغة قبل السكاكي (626 هـ) و كان الأوائل يستعملون مصطلح "المعاني" في دراستهم القرآنية و الشعرية فيقولون " معاني القرآن" أو" معاني الشعر" و يتخذون من ذلك أسماء لكتبهم ، و ليس في هذه المصطلحات ما يتصل بالبلاغة أو بأحد علومها.

و عقد ابن فارس (395 هـ) في كتابه (الصاحبي) بابا أسماه " معاني الكلام " وقال: " هي عند بعض أهل العلم عشرة : خبر و استخبار ، وأمر و نهي ، ودعاء وطلب و عرض و تحضيض ، وتمنٍّ وتعجب ".

و إشارة " ابن فارس " تلك جعلت كثيرا من علماء البلاغة يضيفون إليه أنه صاحب الفضل في إطلاق " معاني الكلام " ، على مباحث " الخبر و الإنشاء " التي أصبحت فيما بعد بابا من أبواب " علم المعاني " بل بالغ بعضهم حتى عدّ " الصاحبي " من أهم الكتب التي اعتمد عليها البلاغيون في بحث علم " المعاني " و لا سيما الفصل الخاص بـــ " معاني الكلام " و يضيف أن السكاكي ربما اطلع على هذا الفصل الخاص واستفاد منه ؛ لأنه ليس في المتقدمين مَن بحث هذه الموضوعات بالتفصيل كابن فارس. و يذهب شوقي ضيف إلى أن هذا الفصل الطريف ربما أوحى لعبد القاهر الجرجاني جانبا من أفكاره في كتابه " دلائل الإعجاز " التي تقوم على أن للكلام معاني إضافية غير معانيها الحقيقية. [13]

ويرى بعض الباحثين أن مجيئ نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني هي التي بلورت علم المعاني و زادته وضوحا، يقول: " و كان ظهور نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " توضيحا لأصول علم المعاني ، و قد سماه " النظم " أو " معاني النحو ".

يقول عبد القاهر :" و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو و تعمل على قوانينه و أصوله و تعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، و تحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تُخل بشيء منها ، وذلك أنّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق ، و زيد ينطلق ، و ينطلق زيد و منطلق زيد و زيد المنطلق ، و المنطلق زيد و زيد هو ينطلق ، و زيد هو منطلق ، و في الشرط و الجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج ، و إن خرجتَ خرجتُ ، و إن تخرج فأنا خارج ، و أنا خارجٌ إن خرجتَ، و أنا إن خرجت خارج ، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني زيد مسرعا و جاءني يسرع ، و جاءني و هو مسرع ، أو هو يسرع و جاءني قد أسرع و جاءني و قد أسرع ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به، حيث ينبغي.

و ينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل منهما بخصوصيته في ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه ، نحو أن يجيء بـــ (ما) في نفي الحال، وبـــ(لا) إذا أراد نفي الاستقبال ، وبـــ(إن) فيما يترجح أن يكون وأن لا يكون ، و بـــ(إذا) فيما علم أنه كائن ، وينظر في الجمل التي تسرد ، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء) و موضع (الفاء) من موضع (ثم)، و موضع (أو) من موضع (أم) و موضع (لكن) من موضع (بل). ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم و التأخير في الكلام كله ، و في الحذف،و التكرار، و الاضمار، و الإظهار فيضع كلا من ذلك في مكانه ، و يستعمله على الصحة و على ما ينبغي له.

فعبد القاهر يجمع في تلك الكلمات علم المعاني كله ، و يبين فيها صور التعبير في الإسناد و المسند اليه ، و المسند ، فلكل واحد من هذه الأحوال غرض خاص ، وفائدة لا تكون في الباقي ....

و إذا حصرنا أبواب علم المعاني وجدناها تحتويها كلمات عبد القاهر السابقة، ولعل هذا ما دعا المرحوم السيد رشيد رضا إلى عنونة كتابه " دلائل الإعجاز في علم المعاني " بزيادة في "علم المعاني ".[14]

و الحقيقة أن هذا النص تناوله العديد من الباحثين كشاهد عن نشأة علم المعاني و أبحاثه و معنى النظم و علاقته بالنحو.

فالدكتور عبد القادر حسين يقول عنه " و ربما كان أخطر ما في الكتاب ، و أعظم أثرا على اللاحقين تلك الفقرة التي ضمت أبحاث علم المعاني كله ، و لم تترك منه شيئا – هذا إذا استثنينا الطلب – و هي فقرة بناها عبد القاهر على أبواب النحو ووجوهه و فروقه، و نعني بذلك تلك الفقرة التي يقول فيها "و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو...ففي هذه الفقرة يتحقق علم المعاني كله و عبد القاهر يبين فيها صور التعبير في الإسناد و المسند إليه ،و المسند، و لكل واحد من هذه الأحوال غرض خاص ، وفائدة لا تكون في الباقي ، فالمسند– و هو الخبر – إما أن يكون اسما أو فعلا و قد يكون نكرة ، و قد يكون معرفة ، و ربما يأتي متقدما أو متأخرا ، و أحيانا الفصل بين المسند و المسند اليه بضمير الفصل ، ولكل ذلك معنى يختلف عن الآخر و الجزاء له صوره المختلفة . ولكل صورة معناها الخاص ، و الحال مفردا أو جملة اسمية أو فعلية ، مقرونا بالواو أو قد أو بهما ، ولكل موضعه من حيث ينبغي له ، و الحروف لكل منها معناه الخاص الذي ينفرد به عن غيره ، فـــ(ما) ، و (لا) للنفي و (لكن) أحدهما للحال و الآخر للاستقبال و إن ، و إذا، الأول منهما للشك ، و الثاني لليقين ، ثم الأمر ليس مقصورا على الكلمات، بل يتعداه إلى الجمل، فإذاً للفصل موضع ، و للوصل موضع لا يصلح فيه الفصل، و بالإضافة إلى ذلك ينبغي الوقوف على مواضع التعريف و التنكير، و التقديم في الكلام كله، وهذا يتضح في معنى القصر أيضا ، و مواضع الحذف و التكرار، و الإضمار و الإظهار. و يتضح معنى الإيجاز في الحذف ، و معنى الإطناب في التكرار.

و إذا أردنا أن نحصر أبواب علم المعاني التي تدارسها اللاحقون بعد عبد القاهر من الزمخشري إلى السكاكي إلى عصر الشروح و التلخيصات لألفيناها تدخل في هذا النطاق ...و أننا نعد هذه الفقرة أخطر ما في الكتاب (الدلائل)..

ومن ثم فإن عبد القاهر يعد صاحب الفضل الأكبر في بناء علم المعاني الذي ينسب إليه عن حقيقة ثابتة لا جدال فيها ".[15]

و الذي يهم هنا وفقا لموضوع هذا البحث هو دراسة الجملة من طرف إمام البلاغيين (عبد القاهر) و أشار الباحث الآنف الذكر(د/عبد القادر حسين) إلى هذا بقوله" ثم الأمر ليس مقصورا على الكلمات ، بل يتعداه إلى الجمل "[16] و في هذا الصدد (أي دراسة الجملة من طرف عبد القاهر) يذهب الدكتور درويش الجندي إلى القول بأنه " كان طبيعيا حين ربط عبد القاهر النظم بمعاني النحو أن يكون هذا النظم ضيقا لا يتعدى دائرة الجملة أو الجمل القليلة ، وبذلك كان لنظم عبد القاهر أثره في جريان البلاغة العربية في مجرى شديد الضيق ، و هو أمر يجب أن ينظر إليه نظرة جدية كل من يعنيهم الأمر في تطوير البلاغة العربية ".[17]

و الواقع أن مواضع علم المعاني تدور كلها حول الجملة؛ لأن دراسة اللفظ لا يخرج عن اطار الجملة.

ومن تعريف السكاكي[18] لعلم المعاني نجد كلمة " تراكيب الكلام" التي تعني الجملة في عموم معناها،حسب رأيي ؛ لأن لفظة " تركيب " وحدها تطلق على الجمل سواء أفادت أم لم تفد ، و كذلك كلمة "كلام" تدل على الجملة.

و لا يفوتني هنا أن أشير إلى معنى النظم و علاقته بمعاني النحو، حيث إن معنى النظم عند عبد القاهر تناوله العديد من الدارسين و في مقدمتهم الدكتور شوقي ضيف معتمدا على كلام عبد القاهر ، حيث يقول"و هو يستهل الدلائل بأن النظم" تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ، و الكلام ثلاث : اسم و فعل و حرف ، و للتعليق فيما بينها طرق معلومة ، و هو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم – وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما... وعند شرحه لتعلق حرف بهما أشار إلى الجملة في الضرب الثالث بقوله " و أما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب: أحدهما أن يتوسط بين الفعل و الاسم فيكون ذلك في حروف

الجر...وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى (مع) " و كذلك حكم (إلا) في الاستثناء... ، و الضرب الثاني... العطف، و الضرب الثالث تعلقٌ بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي و الاستفهام و الشرط و الجزاء بما يدخل عليه... و مختصر كل الأمر أن لا يكون كلام من جزء واحد و أنه لابد من مسند و مسند إليه". [19].

و بعد الإشارة إلى ضرورة وجود المسند و المسند إليه، انتقل إلى مفهوم النظم بقوله: " و النظم بذلك هو معاني النحو التي يدور عليها تعلق الكلام بعضه ببعض.[20] و هناك من الباحثين [21] من عالج مفهوم النظم بعبارات عبد القاهر نفسها ، ثم أضاف إليها توضيحات لبيان المقصود ، يقول تحت عنوان : (مفهوم النظم) : " النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض ، و جعل بعضها بسبب بعض.

يقول عبد القاهر : " إعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ".

فعبد القاهر لا يقصد من النظم إلا تأليف الكلام وفقا لأبواب النحو المختلفة ، لم يكن عبد القاهر أول من اهتم بالنظم ، فالاهتمام بنظم الكلام قديم بقدم الأبحاث اللغوية ، حيث إننا نجد قدماء اليونان قد عالجوا قضاياه ضمن ما عالجوا من ألوان الثقافات الأخرى ..."

إذا مفهوم –النظم– هو " تأليف الكلام وفقا لأبواب النحو المختلفة "و هناك من استنتج من المدخل الذي مهد به عبد القاهر لكتاب الدلائل " أن النظم في جوهره هو النحو في أحكامه ، لا من حيث الصحة و الفساد فحسب ، بل من حيث المزية و الفضل ". [22]

و **الخلاصة** أن البلاغيين درسوا الجملة ، و اهتموا بها اهتماما عظيما بحيث توصلوا إلى ابتكار علم من علوم البلاغة يعنى بها كليا ألا و هو" علم المعاني " ، و هذا الاهتمام بدراسة الجملة لدى علماء البلاغة يعد تطورا و ازدهارا في دراسة الجملة في نظر بعض الباحثين الذي يقول : " أما نحاة بغداد فيبدو أن دراسة الجملة قد نمت عندهم نحو الازدهار و التوسع و بخاصة عندما اهتم علماء البلاغة بدراستها دراسة ميدانية واسعة.

وأول رائد في هذا الميدان هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، وقد ألف كتابا أسماه الجمل...

و درس الجملة دراسة واسعة تقوم على المعاني، مع المحافظة على التنظيم النحوي لها.

فقد تحدث عن التقديم و التأخير في الخبر و الاستفهام، و حذف المبتدأ و الجملة الحالية بالواو و غيره و الجمل في العطف و عدمه، و متعلقات الفعل و كونها تغير معنى الجملة ". [23]

كما أن هناك من الباحثين من يرى أن البلاغيين " قد أعطوا اهتماما كبيرا في دراساتهم لنظام الجملة ، حين تحدثوا عنه في مواضع عديدة من مؤلفاتهم ، و ذلك عندما يتحدثون عن الفصاحة في الكلام و يعرضون لأحوال المسند و المسند إليه من حذف و ذكر و تقديم و تأخير إلى غير ذلك ، و على رأس هؤلاء البلاغيين ، عبد القاهر الجرجاني ، و بعض من جاؤوا بعده أمثال: السكاكي ، و القزويني و السبكي.

و قد كانت دراسة البلاغيين للجملة تقوم على المعاني مع المحافظة على التنظيم النحوي لها و جعله مهما في تركيبها ، فتحدثوا عن النظم و رأوا أنه يتمثل في توخي معاني النحو و أن علم المعاني هو معرفة كيفية التركيب في الكلام لتأدية أصل المعنى ". [24]

وختاما إن البلاغيين اقتحموا ميدان النحاة في مرحلة الجمود و الركود ، و تناولوا أبواب النحو و معانيه بالدراسة الجادة التي مكنتهم في بناء نظرية كبرى في البلاغة و هي نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ، التي من خلالها ظهر "علم المعاني إلى الوجود" ، وهو علم يعنى بدراسة الجملة .

و من هنا يمكن القول بأن" جهود البلاغيين العرب لها مكانها و تقديرها في دراسة الجملة العربية و هي المكمل الطبيعي لجهود النحاة في هذا الميدان ".[25]

الهوامش:

1 – للجملة العربية تعريفات متعددة عند النحاة أشهرها : ما جاء به ابن يعيش بقوله " اعلم أن الكلام عند النحويين عبارة عن كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه و يسمى الجملة ، نحو : زيد أخوك ، و قام بكر ، و هذا معنى قول صاحب الكتاب ، المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى.. ينظر/ شرح المفصل.18/1. نقلا عن كتاب (القواعد التحويلية في ديوان حاتم الطائي) للدكتور حسام البهنساوي ، طبع مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، ص/90

2- الجملة عند البلاغيين: هي إما خبرية أو إنشائية، و لها ركنان:

الركن الأول مسند و يسمى محكوما به أو مخبرا به.

الركن الثاني المسند إليه ، و يسمى محكوما عليه أو مخبرا عنه.

ينظر : الشامل. معجم في علوم اللغة العربية و مصطلحاتها. تأليف : محمد سعيد اسبر – بلال جنيدي.ص/408.

3- أ.أحمد الشايب ، الأسلوب ،مكتبة النهضة المصرية ط:5، ص18.

4-المرجع نفسه ، ص 26-27.

5- د/عبد القادر حسين،أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطبع و النشر، الفجالة، القاهرة ص/03.

*- سورة الأنبياء، الآية/33.

**- سورة يوسف، الآية/4.

***- سورة النمل، الآية/18.

6- المرجع نفسه ص 63-65.

7- السيوطي،المزهر في علوم اللغة و أنواعها، ت/ محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية–صيدا–بيروت، ط/1987، جـ/ 2،ص/405.

8- د/عبد القادر حسين،أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطبع و النشر، الفجالة، القاهرة ص/128-129.

9- د/ درويش الجندي، نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة نهضة مصر الفجالة، 18 شارع كامل صدقي، 1960، ص/7.

10-عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز في علم المعاني، الناشر/دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، لبنان، ت/ السيد محمد رشيد رضا،ص/(ز) من المقدمة .

11-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان،ت/ السيد محمد رشيد رضا، ص/ (ك) من المقدمة .

12- د/ عبد الفتاح لاشين ، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية ، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص/03-04.

13-د/ شوقي ضيف،البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، ط/06.القاهرة ، مصر ،ص/63.

14- د/ عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف ، ط/01 (1976) مصر،ص/79-80.

15- د/عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، مرجع سابق ،ص/375-377.

16-المرجع نفسه ،ص/376.

17- د/ درويش الجندي، نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، مرجع سابق،ص/123.

18-السكاكي /هو سراج الدين أبو يعقوب بن محمد السكاكي ، المتوفى سنة 626 هـــــ .

19- د/ شوقي ضيف،البلاغة تطور وتاريخ ،مرجع سابق ،ص/168.

20- المرجع نفسه ،ص/168.

21- د/ وليد مراد ، نظرية النظم و قيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني ، دار الفكر ، ط/01، 1983، دمشق ، سوريا ،ص/56.

22- د/عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، مرجع سابق ،ص/368.

23- د/ فتحي عبد الفتاح الدجني ، الجملة النحوية، نشأة و تطورا و إعرابا، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط/1978،01، ص/44.

24-د/ الشريف ميهوبي ، بناء الجملة الخبرية في شعر أبي فراس الحمداني – دراسة توليدية تحويلية- رسالة ماجستير(مخطوطة) ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ،1988،ص/35-36.

25-د/ محمود فهمي حجازي ، مدخل إلى علم اللغة ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ،ط/02، مصر ص/69.